قَصيدةٌ مَولوديَّة في مَدح خَير البَريَّة

للشَّيخ العلَّامة عبد الحليم ابن سماية الجزائري (توفي سنة 1933م)

إعداد : عبد الرَّحمن دويب (باحث في التُّراث الجزائري)

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رَسول الله، وبعد:

فقد: «جَرت عادةُ أَهل بِلادنا الجزائر، حرسَها الله مِن الفِتَن وحاطَها مِن الدَّوائر، أنَّه إذا دخَل شهرُ رَبيع الأَوَّل، انبَرى مِن أُدبائها وشُعرائها مَن إليه الإشارة وعليه المعوَّل، إلى نظم القصائد المديحيَّات، والموشَّحات النَّبويَّات، ويلحِّنونَها على طَريقِ الموسيقى بِالأَلحان المعجِبة، ويقرءُونَها بالأَصواتِ المُطربة، ويَصدَعونَ بها في المَحافِل العَظيمة، والمجامع المحفُوفة بِالفُضلاء والرُّؤساء والنَّظيمة، مِن المساجِد والمكاتب والمَزارات، وهم في أَكمل زينة وأَجملِ زيٍّ وأَحسَنِ شارات، تَعظيما لهذا الموسِم الذي شرُف به الإسلام، واحتِفالا بِمولدِه (عليه الصَّلاة والسَّلام)» [1].

وقد أَطلَعَنا الأَديبُ ابن عمار في (رحلته) على نماذج كثيرة مِن هذه القصائد، وفي هذه الأَيام وقَفنا على مجموعة مِن المخطوطات تَتضمَّن قصائد مِن هذا النَّوع لم تُنشر مِن قَبل، نظَمها نخبةٌ مِن العلماءِ والأُدباءِ الجزائريِّين، ومن جملة هذه الدُّرر نُسخة نَفيسة [2] تحتَوي على قَصيدة مِن عُيون القصائد التي تَجري على هذا المنوال، وتحكي هذا المقصد النَّبيل بما هو أَطيَبُ للنَّفسِ مِن الماءِ الزُّلال، عقدَ دُررها المنثورة، ونسجَ حلَّتها المستُورة، نادرة الجزائر، وعلَّامة رَيحانة القاطِن وسلوانة الزَّائر، الملحوظ بعَين العناية، والمحفوظ ذِكره على الأَلسِنة دِرايةً ورواية، الشَّيخ عبد الحليم بن علي ابن سماية[3] الذي كان يجيد هذا الفنَّ مِن النَّظم.

قال عنه تلميذُه الشَّيخ عبد الرَّحمن الجيلالي: «وللشَّيخ مَقدِرة عظيمة على الترسُّل ونظم الشِّعر ... فهو يكتبُ على أُسلوب البلغاءِ مِن الرَّعيل الأَوَّل بلا تكلُّف ولا تعسُّف ... وله تخصُّصٌ في الشِّعر بِنظم الموشَّحات على أُسلوبِ ما نظمَه أُدباءُ الجزائر وعلماؤها من موشَّحاتهم المولديَّة الشَّهيرة الموزونة على مُقتضى الأَنغام والأَلحانِ والطبوع الموسيقيَّة الأَندلسيَّة التي أَشار إليها الشَّيخ أحمد بن عمار في (رحلته)» [4]، ثمَّ ساق الوصلةَ الأُولى مِن هذه القَصيدة التي نقدِّمها اليوم للقرَّاء.

هذا، وإنَّ رغبتنا في نشر هذه القصيدة اقتصَرت على إيرادها خالية عن أيِّ تعليق قد يشوِّه بهجتَها، مع الإشارة فقط إلى أنه وابتداءً مِن الوَصلة (17) وجَريًا على نمطِ البديعيات ضمَّن الشَّيخ ابن سماية (مولديَّته) عَددا مِن أَلقاب أَنواع البديع، تُراجع تعريفاتُها في كتبِ البلاغة والبديع.

وصلَّى الله وسلَّم على مَن تتعطَّر المجالسُ بذِكره، وتشرفُ النُّفوسُ بمَدحه، وبَلَّ تعالى بِصَيِّب الرَّحمة تُرابَ ناظِمِها وأَسكنَه جِوارَه، وأَحيا في قلوبِ الخلقِ ذكره وأَكرمَ مثواه.

صَبرا فلا تحسَبوا بالقَبر مَدفنهُ
بل جِسمُه في قلُوبِ الخلقِ مُضطجعُ[5]

(1) نحلة اللبيب بأخبار الرِّحلة إلى الحبيب (ص: 15 ـ 16)، مطبعة فونتانة (الجزائر)، سنة 1320هـ/1902م.

(2) اعتَمدنا في نشر هذه القصيدة على نسخة خطية، وتقَع في خمس لوحات، وخطُّها جزائري جميل.

(3) هو الشَّيخ العلَّامة الأَديب عبد الحليم بن علي بن عبد الرَّحمن بن حسين خوجة ابن سماية الجزائري، تنتمي أسرته إلى آل سماية، وهي أسرة تركية عريقة بمدينة الجزائر، يعتبر مِن أوائل المصلِحين الجزائريِّين المعتنِقين لمذهبِ الأُستاذ الإمام محمَّد عبدُه (ت: 1905م)، ولد بالجزائر العاصمة سنة 1283هـ/1866م، وحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ حسين أبي شاشية، وأَخذَ اللغة العربية والفقه والتَّوحيد عن والده، والمنطق والبلاغة عن الشيخ الطاهر تيطوس، والحساب والفَرائض عن صهره علي بن حمودة، كان له إلمام باللغة الفرنسية ومعرفة باللغة العبرية، وكثيرا ما كان يجادل أصحابها في دينهم ويناظِر أَحبارَهم ورُهبانَهم ويَسوقُ لهم الأَدِلَّة والنُّصوصَ مِن كتُبِهم، تولَّى خطَّة التَّدريس بالجزائر العاصمة سنة 1896م، ثمَّ بالجامع الجديد سنة 1900م، واشتهر أُستاذا بارزا بالمدرسة الثَّعالبية حيث تخرَّج على يده جيلٌ مِن المثقَّفين، توفي بمدينة الجزائر سنة 1933م، بعدما أُصيب بمرضٍ عَقلي لشدَّةِ وَيلات الاستعمار واضطهادِه إياه، مِن آثاره: اهتزاز الأطواد والرُّبى من مسألة تحليل الرِّبا، رسالة طبعت سنة 1911م، ورسالة في التَّوحيد والردِّ على شُبه المبطِلين والمُلحدين، ورسالة في التصوُّف بعنوان: الكنز المدفون والسِّر المكنون، وكتاب فلسفة الإسلام، وله عدَّة مقالات كتبها في الصحافة العربية، كما أن له عدَّة قصائد، انظر ترجمته في: تاريخ الجزائر العام (4/400 ـ 420) للشَّيخ عبد الرَّحمن الجيلالي، ونهضة الجزائر الحديثة (1/106) للشَّيخ محمَّد علي دبوز، ومعجم أعلام الجزائر (ص: 178 ـ 179) للأستاذ عادل نويهض، وجريدة النَّجاح: الأعداد: 1406، 1407، 1412، ومجلَّة التِّلميذ: العدد: 3 ـ 4، رمضان/شوال 1351هـ/جانفي/فيفري 1933م، ص: 10 ـ 17.

(4) تاريخ الجزائر العام (4/412)، ديوان المطبوعات الجامعية، ط/7، سنة 1994م.

(5) بيتٌ مِن قصيدة للشَّيخ علي اليحياوي (إمام جامع باريس) في رثاء الشيخ ابن سماية، انظر: جريدة النجاح، العدد: 1412، الأربعاء 13 شوال 1351هـ/8 فيفري 1933م.

بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم

وصلَّى اللّه على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم

يا رَوحَ ســـارٍ تَعطَّـــر ❁ مِن نَشرِ أَهلِ الخِيامِ
بِاللّه ســـر تَتَخطَّـــر ❁ واحمِـــل إِلَيهِم سَـــلامـــي
بَلِّغ إِلـــى أَهلِ طَـــيبهْ ❁ مِنِّـــي عظيـــمَ التَّحيَّهْ
قِـف وَقفَةً مُستطيـبهْ ❁ عِندَ كريـــمِ السَّـــجيَّهْ
وانشَق هُنـالِك طِيـبَهْ ❁ مِن رَوضَـــةٍ عبقريَّـــهْ
أَنـتَ رَسـولي المظفَّر ❁ مَهمـــا عَـــلاني هِيـامي
إِذ صدَّني الذَّنبُ الاكبر ❁ عَن مَحضَري في المُقام
ذاك المقـامُ السَّـــعيدُ ❁ تُـــربُ ثَـــراه شِفـــاءُ
له مَزارٌ بـعيـــــدٌ ❁ شـــطَّ وطاشَ الفضاءُ
مَـن جـلَّـه فَسعيـــدٌ ❁ قَد نـــالَـه الإعتنـــاءُ
الأَرضُ منه كـــعَـنبـَر ❁ لِنـــاشِقٍ ذي اشتمـام
قَدرُه في القلبِ أَكـبَـر ❁ مِنَ الرَّواســـي العِظـام
يـا لـيتَ شِعري وماذا ❁ ينفـعُ قلبـي التَّمنِّـــي
أَحدو العِتـــاقَ اللَّـواذا ❁ وهَـــل أَراه بِعَينـــي
أُمسِكُ فـيـــه مـــاذا ❁ بِـكـلتَي القَبـضَتَيـن
أَرفَعُ صَوتـي وأَجـهَر ❁ يـــا نُورَ عَينِ الأَنـــام
اِلحظ فـُؤَادي بِـمنظَر ❁ يُـذهِبُ غَينَ غِيـــامـي
مِـن بعدِ فَرضٍ يُـؤَدَّى ❁ في بيتِ ربِّـــي العَتيـق
ومَسِّ الاَسعَدِ عَـهـدًا ❁ يَشـهَـدُ بينَ الرَّفيـــق
اشتَـدُّ في السَّعي شَدًّا ❁ فـــي صِحَّةٍ مَعْ رَفيـق
أَصـعـدُ طـــوداً تدثَّر ❁ بِـــالعِـــزِّ والإحتـرام
فيـه رِضى اللّه فـجَّـر ❁ غَيـــثَ المُـنَى والمرام
أَكـرِم بِتلكَ البِقاع ❁ تَـشرُقُ أَعلَى السَّمـــاءِ
شرَّفَـــها بِالمسـاعي ❁ خـــاتِمـةُ الأَنبِيـــاءِ
مِن قَبلُ كانت تُراعي ❁ إِتيـــانَـها بِالسَّنـــاءِ
وحـــيُ الإِله المنـوَّر ❁ مِن نُـور وَصفِ الكـلام
اللّهُ دلَّ وأَظـــهـــر ❁ منه الذي في انبهـــام
تاللّه مـــا كـــلُّ خَير ❁ في ذا المـــلاَ مِن سِواهُ
ومـــا سَمـــا كلُّ قُطرٍ ❁ إِلَّا بِـمـــا قَد حَـــواهُ
للمـومن ينَ وكُـفرٍ ❁ كلٌّ عـلى مـــا طَـواهُ
هذا اهتَدى بِي وتشكَّر ❁ هذا احتَدى وهْوَ عـامـي
ظـنَّ الشُّموسَ تُستَر ❁ في المـطلَع المُتسـامي
جـــاءَ النبيّـُونَ قَبلاً ❁ مـنـه بِمـــا مُنِحـوهُ
واعتَـــرفوا لهُ فَضـلاً ❁ يـــاتي وقَد لَمـحـوهُ
بـحـرُه يَنـهـلُّ هـــلّا ❁ مـــا إِن هُـــم سـابِحوه
حتَّى أَتـى البدرُ الأَزهر ❁ في حِيـن حَيْنِ التَّمـام
يَشمـلُ كلَّ المسـطَّر ❁ في اللَّوح شَملَ انجِمام
واللّهُ عـــزَّ وجـلَّا ❁ أَنـطَقَ عنهُ الـدَّلائـل
إِعجـــازُه قد تعلَّـى ❁ تَدريـــه صُمُّ الجنادِل
إِلَّا الـــذي قَـد تـــولَّى ❁ مِن كلِّ غُمرٍ وجـاهِـل
كَـم ذا الذي مـنه يُذكَر ❁ فـي مَولِدٍ أَو فِـطـام
فَضلًا عـلى مـا يُسطَّر ❁ مـرَّ الـمَـدى والـدَّوام
اِرتجَّ إِيـــوانُ كِسرى ❁ يُـــونُه بِانتِزاعـــهْ
والنَّهـرُ كفَّ الـمَـمـرَّا ❁ لأَنَّـــه طَوعُ بـاعـهْ
والنَّـــارُ لم تُورِ جَمرا ❁ مُطفـــأَةً بِشُـعـاعِـهْ
والـــجوُّ مـاجَ وأَمطَر ❁ بِالشُّهبِ جِنَّـــا تُسامي
وهْوَ بِـــذا الفِعل أَنـذَر ❁ أَهلَ الشَّقـــا بِانتقـام
نُكِّـسَ رأْسُ الهيـاكِل ❁ كَي يُشـعَـرَوا ذُلَّ كُفـرِ
وشـــاعَ بينَ القبائل ❁ أَخبـارُ أَصحابِ سِحرِ
ورنَّمت في المنـــازِل ❁ جِـــنٌّ بِأَفصح شِعـرِ

جـــاءَ النَّبيُّ المطهَّر ❁ كاشِـفُ جُنـحِ الظَّلامِ
يـــا غـــافِلاً فتطهَّر ❁ واقْفُ سَبيـلَ الكِرامِ
هـــذا النَّبيُّ الشَّفيـعُ ❁ صِـفـوةُ خـلـقِ الإِلهِ
مَطـلـعُهُ ذا الرَّفيـــعُ ❁ بِالحسنِ كان يُضاهي
أَقبَلَ فيـــه الرَّبيـــعُ ❁ والـــكَونُ زاهٍ وبـــاهِ
الحُسنُ لِلحسنِ يَنجَر ❁ والـوقتُ شكلُ الإِمـام
قَـد كُلِّلَ الـزَّهرُ بِـالدُّرّ ❁ ذي النَّثرِ والإنتِظـام
مِثلَ السَّمـــاءِ تجـلَّـت ❁ بِـالزَّهرِ وَجهَ عَـروسِ
أَنجُـمُهـا قَد تـدلَّت ❁ في ضَوئِها كالشُّموسِ
هـــاذي وَقـــايِعُ جَلَّت ❁ تعـظُمُ عندَ النُّفـوس
الكَونُ صـــاحَ وبشَّـر ❁ مِن نُـور وَصفِ الكلام
دلَّ بِـأَبهَـــج مَـنظـر ❁ أَن جـــاءَ تاجُ العِظـام
ذو القَدرِ والعِلمِ الأَكمَل ❁ كَنزُ الإِلـــه المُطَلسَم
عَينُ الكمـــالِ المكمَّـل ❁ مَن بِـه ربِّـــي أَقسَـم
حَيطةُ الأَكوانِ الاَشمَـل ❁ الفَـضـلُ فيـه تبسَّم
محمَّـدٌ قـــايِـدُ الـغُرّ ❁ حُلُّوا بِأَبهـى وِســام
مَـن اسمُـــه يـتـكرَّر ❁ مَعْ ربِّـــه بِانضِمـــام
وعنه موســـى الكليـمُ ❁ أَرضـى وبشَّـرَ قَومَه
والرُّوحُ عيسى العظيمُ ❁ قَد قامَ أَيضًا بِقَومهُ(6)
كِلاهُـمـــا مُستَديـــمُ ❁ عَـهـدًا يؤَكِّدُ جَـزمَـهْ
إِذا أَتى الـبَـدرُ الاَقمَـر ❁ أَحـمَـدُ ذاكَ التِّهـامي
وراكِبُ العَيـرَ الاَحمَر ❁ فـصـدَّقُوا باهتمـام
لـكـم علَيـه عـلائِـم ❁ تمَّـت على كُلِّ وَجـهِ
حتَّى القَفا فيـه خاتِم ❁ كَي تُـغَرُّوا بِشـبِهِ
شَـهـمٌ وقلبُه راجِـم ❁ يُجلـي الحيـاءَ بِوَجهِ
لمَّـا تـجـلَّـى وأَزهَر ❁ بِـه العُلـى مِن أَمـام
ولبَّـى الـكثيـرُ وأَدبَر ❁ والنَّكـثُ طَبعُ اللِّئـام
تَبَّـا لـمن عَـرفُـوه ❁ عُـرفَ ابنِهـم ثمَّ وَلَّوا
تَنزيـلَهـم حـرَّفـوه ❁ تَـعـميَّة وتَعَـلَّـوا
بِالـضِّدِّ قَـد وَصَفـوه ❁ والـحـربَ لله أَبـدَوا

[براعة الإستهلال ـ الجناس التام ـ الجناس المصحَّف]

اللّهُ أَعلَـى وأَكبَـر ❁ قَـد قدَّهـم بِحُسـام
سَـل عنهـمُ يَومَ خَيـبَر ❁ سَل كلَّ مَغنًى بِشـام
لمـــا استهـلَّ بَراعَـهْ ❁ هذا النبيُّ البـديـعُ
تَـمَّ جِناسُ البَراعَـهْ ❁ في فَضلِه مُستطيـعُ
دانَـت وذابَت جَماعـهْ ❁ قَد صحَّفوا فأُضيعوا

[الجناس المركَّب ـ الجناس المطلَق ـ جناس القلب ـ الجناس الملفَّق ـ الإستخدام]

سِر بي لِسربي المُطهَّر ❁ رُكَّـابِ أَعلَى سَنـام
سَنـا سِنـانِهـم احمرّ ❁ مُطلـقَـه في القَتـام
الكَربُ رَكـبٌ لهـم فـي ❁ قلبِ حليفِ اصطبـار
قَد لـفَّ قُـوتَ نَهـار ❁ قَد لـفَّـقـوا كلَّ صِـنفِ
واستَخدَمـوا كلَّ حَرفِ ❁ يُرسَمُ رَسـمَ افتِخـار

[الإستطراد ـ المطابقة ـ الإستعارة ـ الإفتنان ـ المقابلة]

واستطرَدوا مَن تـجبَّر ❁ كَقَومِ فيـلٍ طِغـام
قلُّـهـم قَد تَـوفَّـر ❁ إِذ طابقُوا خَيرَ حـام
غُصـنُ الأَمانـي تفتَّح ❁ حَيثُ استعـارَ الفَلاحا
بِـالإفتِنـانِ تَـرنَّح ❁ علَّى وفاقٍ قِداحا
قابِلـهُ بِالشُّكر وافرَح ❁ في الكُبرِ بـثَّ الـنُّواحا

(6) كذا في الأَصل المخطوط.

[الطي والنَّشر ـ الإلتِفات ـ الهزل الذي يُراد به الجدّ ـ إرسال المثَل ـ القَول الموجب]

الطَّيَّ والنَّشرَ فـاذكُر ... ❋ ... في ظَهرهم والعِظام
والــفَتهــمُ تتبختَـر ... ❋ ... جُوزيتُـمُ بـاحتِـرام
هـازِلهمُ الـجدَّ هَـزلا ... ❋ ... حُمرَ الثِّيابِ لَبِسـتُم
مَثَلـكُـم صـارَ يُتلَـى ... ❋ ... مِن ظُلمِكُم قَد بَئستُم
قَد أوجبَ الفخر قَولا ... ❋ ... لا تَحزَنـوا قَـد يَئستُم

[التَّهكُّم ـ النَّزاهة ـ المراجعة ـ الإبهام ـ الإنتِقاض]

بُشرى لهُم قَد تدَمَّر ... ❋ ... حِصنُـهـمُ باهتِكـام
نزَّهتُ لَفظي ليُشكَر ... ❋ ... إذ دَخلوا في الذِّمـام
قالوا نَتوبُ فقالوا ... ❋ ... لا تَرجِعوا قالـوا هُدْنا
وأبـهَـموا فأحـالـوا ... ❋ ... واتَّخـذوا الجدَّ مَينـا
نَـقضُـهـم سَـيُـزالُ ... ❋ ... إذا نَجَـوا أو صَفَحنـا

[القسَم ـ مُراعاة النَّظير ـ التَّصدير ـ الإكتفاء ـ الكلام الجامع]

وحــقِّ نُـورٍ تَنـوَّر ... ❋ ... أقسمُ مـا شـامَ عامي
كيفَ يُراعـي ويَنظُر ... ❋ ... مَن جَفنُه ذُو سَقـام
صَـدرُ الكمـال رَفيـعُ ... ❋ ... تَصديـرُه لـهُ صَـدرُ
في الإكتفـاءِ مَنيـعُ ... ❋ ... يَنفـي القُضَى ويُمرُّ
جَمعُ الكـلامِ جَميـعُ ... ❋ ... للفَصل شـانٌ وأمرُ

[التَّورية ـ حُسن التَّخلُّص ـ الاقتباس ـ ما لا يستَحيل بالإنعكاس ـ التَّلميح والإحتراس]

قَد استَوى فَوقَ مِنبَـر ... ❋ ... تَوريـةً بِاحتِكـام
تَخلُّـصـي لـه أذكَـر ... ❋ ... أصحـابَ خَير الأنَام
كَزَرع اَخرجَ شَطـاه ... ❋ ... للـزَّهر منه اقتِبـاسُ
يُرقـي ويُغريكَ خَبـاه ... ❋ ... ولم يُجِـلهُ انعِكـاسُ
قَد ضـاعف اللهُ بَداه ... ❋ ... يَـلـمَحُه الإحـتِراسُ

[التَّوشيح ـ التَّسهيم والانسجام ـ بَراعة المطلب ـ الإيجاز ـ التَّعديد]

مُـوَشَّحٌ مـنـه يَبهـَر ... ❋ ... صِنفان سـامٍ ونـام
مُسهَّـمُ الثَّوبِ أخضَر ... ❋ ... وغَيـثُه في انسِجـام
قَد بَـرعَ الجـودُ منهُ ... ❋ ... فـلَم يُعَـنِّ بِمـطـلَب
سَـلِ المكـارِمَ عـنهُ ... ❋ ... تُوجِـز وتـاتِ بِأقرَب
فَضـلٌ وجُـود وكُنهُ ... ❋ ... تَعديـدُه لا يُـعـرَّب

[حُسن التَّعليل ـ بَراعة الخِتام]

تَـعليـلُـه لا يُـقـرَّر ... ❋ ... لأنه الفَيضُ هـامـي
يَحسُنُ خَتمـا ومَصدَر ... ❋ ... كنَفح مِسكِ الخِتـام
يـا ربِّ بِـالأكرَميـنَ ... ❋ ... صَحبِ النَّبيِّ المُطهَّر
مَن بلَّغـوا المؤمنيـنَ ... ❋ ... دينًـا أضـاءَ وأزهَر
في صَفحةِ المادِحيـنَ ... ❋ ... يُكـتـبُ هذا المُسطَّر

مِن فَيضِ فَضلِكَ أُوْجَر ... ❋ ... أحظى وتُرعَى ذِمامي
ومِن رَحيـقٍ وكَـوثَر ... ❋ ... أملأُ أعـظـمَ جـام
وانشُـر عـلـيَّ لـواءً ... ❋ ... قَد شُدَّ فَوقَ الرُّؤُوسِ
والوالدَيـن انتمـاءَ ... ❋ ... نَجِّـهـمُ كلَّ بُـوسِ
والـمؤمنيـنَ سَـواءً ... ❋ ... يُجلَونَ مثل العَروسِ

يشفَـعُ فيـنـا المُبرَّر ... ❋ ... مـلجأُ يَومِ الزِّحـام
عنـه الـصَّـلاةُ تُكـرَّر ... ❋ ... تَتبـعُ أزكَـى السَّـلامِ

صورة الصفحة الأولى من النُّسخة المعتمدة